الفصل الثالث:

كنعان والكنعانيون

أسمهان شريح

" يسود في دراسة الآثار الفلسطينية منهجان، أحدهما، منهج دراسة الآثار توراتيًا وبموجبه توظف الأحداث التاريخية والدلالات الأثرية كثقافات الشرق الأدني لخدمة حادثة دينية، والمنهج الآخر هو دراسة الآثار تاريخيًا، وفيه تؤخذ الأحداث التاريخية والدلالات الأثرية كما هي، أي أنها تعبر عن حضارة إنسانية ".

د. " بالو أماتييه "

" وأكثر شيء نبحث عنه هو أساس التاريخ، والحقيقة التأريخية، وفي استطاعتي أن أجادل في التوراة أناسًا كثيرين يريدون أن يزوروا التاريخ ويغيروه ".

د. "س. و. هلمز"

" إن على كل من يلج بوابة كنعان، أن يتسلح بالعلم والصبر، وأن يخوض معركة فك ارتباط جدّ قاسية، من أجل تحرير، هذا التاريخ العربي من كل ما ألصق به عمدًا وجهلاً، من كل المخلوقات الطفيلية، ثم ترك مرميًا خلف البوابات المهجورة الرطبة ".

د. " أحمد داوود "

أدى الاهتمام المتزايد بالقضية الفلسطينية، إلى نشوء وعي حولها،

وخاصّة في أوروبا وأميركا، نتج عنه، في العقود الأخيرة من القرن الماضي، ظهور اتجاهات جديدة في كتابة تاريخ فلسطين؛ والمقصود بفلسطين: هي تلك المنطقة الجغرافية بحسب التحديد الناجم عن اتفاقية سايكس - بيكو المعروفة، بين بريطانيا وفرنسا، ومن الأهمية بمكان التأكيد على أنه لا يمكن الحديث عن تاريخ منفصل لفلسطين بمعزل عن جوارها الطبيعي، حيث لم تكن فلسطين يومًا محدّدة كما هي اليوم.

ترمي هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على تاريخ كنعان والكنعانيين، الأرض والشعب، من خلال عرض موجز للكتابات الكلاسيكية حول هذا الموضوع، ومن ثم تقديم الجديد، سواء أكان هذا الجديد من خلال المنهجية، أي الاتجاهات الجديد في كتابة تاريخ المنطقة، أم الجديد الناجم عن النظريات التاريخية الجديدة، وتوسيع الاكتشافات الآثارية، والدراسات الأركيولوجية.

ولأغراض هذا البحث، سيتم تقسيمه إلى مقدمة تعرض بإيجاز هذه النظريات والاتجاهات، وثلاثة أقسام يتناول الأول الكنعانيين كشعب، أو سكان المنطقة المعروفة بـ " كنعان ". وبتناول القسم الثاني كأرض، أو جغرافيا، ثم الحضارة الكنعانية، وأخيرًا سوف نعرض لما توصلنا إليه من استنتاجات.

مقدمة:

إن الحركة الصهيونية باستخدامها الجماعات اليهودية في العالم، كمادة لمشروعها الاستعماري، من جهة، وبتحالفها مع القوي الاستعمارية الغربية من جهة أخري، أقحمت في الصراع مع سكان المنطقة بعداً

تاريخياً أسطوريًا، وحضاريا، بدأت تتكشف تأثيراته، وتأخذ مناحي مختلفة، أدت إلي زيادة الوعي والاهتمام، وبالتالي تعميق البحث حول هذا الصراع وجذروه التاريخية.

وكانت النتيجة ظهور اتجاهات جديدة في كتابة وقراءة تاريخ فلسطين والمنطقة التي اقتطعت منها، ما أدى الي كشف بعض الباحثين الموضوعين الهدف السياسي الكامن خلف الكثير من التلفيق والمغالطات التاريخية المتعلقة بفلسطين، وفي كتابة الشهير " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائلية يقول روجيه غارودي " إن التبرير اللاهوتي المزعوم للعدوانات المتكررة، بالاعتماد على قراءة أصولية للنصوص الموحي بها، يحول الأسطورة إلي تاريخ [١].

ويري كيث وإيتلام أن " تاريخ فلسطين قد تم تجاهلة وطمسه من قبل الدراسات الكتابية لأن موضوع اهتمامه هو إسرائيل، كما تم تصورها وتقديمها بوصفها الجذر الأساسي للحضارة الغربية [٢]، والمقصود بالدراسات الكتابي دراسات الكتاب المقدس لدي الغرب المسيحي، الذي يتكون من التوراة والإنجيل معاً، وهي الدراسات التي تتعاطي مع تاريخ فلسطين القديم وجوارها من منظور عنصري متماه مع منظور التوراة، ولذلك فإن وايتلام يحاول في كتابة تلفيق تاريخ إسرائيل طمس التاريخ الفسطيني، كما يقول توضيح فكرة مفادها أن التاريخ الفلسطيني القديم موضوع مستقل بحق، ولا بد من تحريره من قبضة الدراسات الكتابية، وبعد أن يقر وايتلام بصعوبة هكذا عمل، فإنه يقرر إن تكوين المفاهيم عن الماضي وتقديمها عمليتان محفوفتان بالمصاعب، ليس بسبب

غموض المعطيات وندرتها فقط، بل بسبب أن بنية التاريخ ذلته المكتوب منه أو الشفوي في الماضي أو الحاضر هي بنية سياسية [٣]وبذلك يقر وايتلام بأن " تاريخ فلسطين " قد تعرض للطمس والتلفيق، وهو الأمر الذي كرس له د. أحمد داوود عددًا في كتبه، في محاولة منه لكشف بعض معالم هذا التلفيق والتزوير.

هذا فيما يتعلق بالمنهجية الجديدة في كتابة، وقراءة " تاريخ فلسطين " القديم، أما عن النظريات الجديدة، فتجدر الإشارة إلي نظرية د كمال الصليبي المتضمنه كتابة " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، والتي اعتبرها البعض فتحًا علمياً جديداً، في حين تعرضت النظرية نفسها للمعارضة والحرب الإعلامية من جهات متعددة من الشرق والغرب.

لعل من أهم المفاهيم المتداولة، والتي تشكل سمة مميزة لفلسطين في العصر القديم، مفهومي الكنعانيين، كسكان سكنوا فلسطين منذ القديم، وكنعان، كمكان، أو نطاق جغرافي عاش ضمنه الكنعانيون.

الكنعانيون:

حسب التاريخ الكلاسيكي، فإنه منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت جموع سامية تنتقل الي المنطقة المعروفة بسوريا ولبنان وفلسطين، من شبه الجزيرة العربية، ويمكن اقتفاء آثار ذلك عند الكنعانيين، الذين سكنوا فلسطين، والفنيقيين، الذين استقروا في لبنان وبعض الساحل السوري، والعمورين الذين استأثروا بسورية الداخلية.

استناداً إلي ذلك، يقول المؤرخ الفلسطيني عارف العارف: إن

الكنعانيين هم إحدي القبائل العربية، التي خرجت إلي بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وقد سميت فلسطين بأرض كنعان نسبة إليهم، وقد استوطنوا معظم انحاء فلسطين، وبنوا فيها مدناً محصنة، منها القدس، وشكيم، وبيت شأن، ومجدوا، واشكلون، وغزة، وغيرها، وكانوا يجيدون الزراعة وصناعة الفخار والنسيج، وصناعة البناء، وقد عرفوا المعادن والتعدين، وشرعوا القوانين، كما عرفوا حروف الهجاء، والكتابة والتأليف، وكانوا يعبدون الأصنام، ومن آلهتهم المعروفة " بعل " إله الشمس [٤].

الجدير بالملاحظة، في هذا السرد التاريخي، أنه يوحي، وكأن هذه المنطقة كانت خيالية من السكان، رغم اتفاق العلماء، على ان الإنسان الذي عاش في بداية العصر الحجري القديم الأول، حوالي ١.٥٠٠.٠٠٠ سنة منذ الوقت الحاضر، هو مايسمي بالإنسان منتصب القامة، ودلت المخلفات الأثرية على أن هذا الإنسان قد عاش في غروبي وشرقي نهر الأردن.

مما جاء في الموسوعة الفلسطينية بخصوص الكنعانيين: أما الكنعانيين، فيختلف العلماء في أصلهم، فمنهم من قال إنهم الأقوام الذين تسللوا بين العموريين، في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، ويدعوهم كلود شيفر وكائلين كينون " حملة الأطواق "، منهم من قال إنهم الأقوام العمورية، التي استوطنت في الأراضي المنخفضة من فينيقية وفلسطين، ويقوي الأخذ بالرأي الثاني، الدلائل التي تشير الي أن " حملة الأطواق "، كانوا في الغالب أقواماً حورية لا سامية، وأنهم جاءوا من الشمال لا من

الشرق أو الجنوب مهبط الأقوام السامية.

والكنعانيون، تضيف الموسوعة، كانوا دون أدنى شك من اصل سامي والمعلوم أن العموريين، الذين جاءوا من الصحراء، شنوا في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد حملت كثيرة على المدن الفينيقية والفلسطينية، التي ازدهرت في القرن الثالث قبل الميلاد، وتدعي حضارتها حضارة العصر البرونزي القديم، وقد دمروها شر تدمير، وفتكوا بأهلها، وافنوهم عن بكرة أبيهم، ونشروا الفوضي والخراب في المنطقة لمدة أربعة قرون، وعندما قامت الأسرة الثانية عشرة في مصر في القرن العشرين قبل الميلاد، أعيد النظام الي نصابة، وتأسست مدن جديدة على أنقاض المدن، التي دمرها العموريون، وتدل أسماء بعض المدن على أن اللغة كانت لغة، أو لهجة عمورية، واستوطن بعض العمورين في المنطقة الجبلية، وبقوا على اسمهم، واستوطن البعض الأخر في الأرض المنخفضة فلسطين، وسموا كنعانين، وكلمة كنعان مشتقة من كلمة كنع ومعناها باللغة الفينيقية، أو الكنعانية انخفض، ويشمل عهد الكنعانيين العصرين الأثريين البرونزي المتوسط، والبرونزي المتأخر [٥].

أما المقارنة في هذا الطرح، القائل بأن القبائل القادمة من شبه الجزيرة العربية هي أول من استوطن فلسطين والمنطقة المحيطة بها، فتكمن في اتفاقها مع الطرح الصهيوني، القائل أن سكان فلسطين الأصليين (الفلسطينيين)، جاؤوا من الجزيرة العربية، وعليهم العودة من حيث أتوا، في تبرير لسياسة الترحيل والتظهير العرقي، التي ينتهجها

غزاة فلسطين الجدد من اليهود في فلسطين، كي تكون دولة يهودية خالصة.

وجاء في كتاب د فيليب حتي، " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، أن الكنعانيين الذين سماهم اليونان بالفينيقين فيما بعد، هم ثاني جماعة سامية لعبت دوراً هماً في تاريخ سوريا بعد الأموريين.

الكنعانيون والأموريون يتنسبون إلي موجة الهجرة نفسها، وبذلك فإن الإختلاف العرقي معدوم بينهم، وكان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل، ولذلك كانوا متجهين إلي مصر (حضارياً).

يري د. حتي، أن السبب في أن اليونانيين أطلقوا على الكنعانيين اسم الفينيقين، لأن الكنعانيين، كغيرهم من الشعوب القديمة، كانوا يتألفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبلية، والمحلية أكثر مما تشعر بوحدتها القومية، وكان عليها أن تنتظر أجنبيا ليعطيها أسما عاماً [٦].

وبذلك فإن د حتي، فضلا عن العنوان الملتبس الذي أختاره لكتابه " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، حيث يقر التقسيم الحالي، الذي لم يكون موجودًا قبل اتفاقية سايسكس - بيكو، يتفق في رايه هذا عن الكنعانيين، مع رأي المستشرق مارتن نوت القائل بأنه " كظاهرة طبيعية، البلاد (أرض إسرائيل، أو فلسطين)، لم تكن أبدا كياناً متجنساً مستقلا، كما أنها لم تسكن من قبل أناس متجانسين.. ولذلك فإن تعبير أرض إسرائيل يمكن أن يصلح إلي حد ما كتوصيف مرن للمنطقة [٧].

يري كيث وايتلام مؤلف كتابة " تلفيق إسرائيل التوراتية طمس

التاريخ الفلسطيني، أن تورط الخطاب الكتابي الحديث في الصراع، وادعاءات الدولة الحديثة (إسرائيل) بأن المنطقة هي " الوطن الطبيعي " انعكس في تصور الماضي، الذي تحل فيه إسرائيل محل فلسطين، وينسخ التاريخ الإسرائيلي مرحلتي ما قبل التاريخ، والتاريخ الكنعاني، فليس ثمة فلسطينيون قدماء، بل هناك سكان ماقبل التاريخ، أو كنعانيون فقط، وبالتالي فليس شئ اسمة (التاريخ الفلسطيني) (٨).

أما د. كمال الصليبي، فإنه يؤكد أن الكنعانيين، الذين وصلوا فلسطين قبل الفلسطينيين، واليهود، أعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن)، على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين.

ويري سابتينو موسكاتي، أن تسمية كنعان، والكنعانيين إنما جاءت من التوراة، فيقول في كتابه الحضارات السامية القديمة: تسمي التوراة المنطقة المكونة من فلسطين وفينيقيا، كنعان، وتسمي سكانها الكنعانيين، ومن ثم تعارف العلماء على إطلاق اسم الكنعانيين على أسلاف إسرائيل، وجيرانهم الساميين الذين استوطنوا الظهير السوري (٩).

لذلك، فإن موسكاتي، يري أنه من المستحسن " أن يعالج في المستقبل تاريخ سوريا وفلسطين، أو سوريا بمعناها الواسع، وهو اصطلاح موفق أخذ به الجغرافيون، على أنه موضوع واحد دون أية حدود صناعية.. وهنا لا حاجة به إلي اصطلاحات كلفظ الكنعانيين (١٠).

استنادًا إلي ما سبق، وعلي ضوء أطروحة د. كمال الصليبي القائلة بأن " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، وأن موطن بني إسرائيل هو

الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، ويري د. أحمد داوود أن المكتشفات الآثارية من أقصي شمال سوريا الطبيعية إلي أقصي جنوبها، لم تشر إلي أي وجود كنعاني فيها، ولم تأت على أي ذكر لكنعان، وأما ما يزعم البعض من أن الكلمة وردت في الأسطر القليلة المكتشفة على ما دعي بتمثال إدريمي في الألاخ، فهذا زعم باطل، إذا أن الكلمة هي " قيناني "، وتعني مقتنياتي، ملكي، وليست " كنعان ".

ويضيف د. داود: إن المستشرقين الاستعماريين، هم الذين نقلوا الأحداث التوراتية العشائرية، من جغرافيتها الضيقة، في عسير من شبه جزيرة العرب، وحولوها إلى دول، وشعوب، وإمبراطوريات تغطي سوريا الطبيعية كلها، وبقيت تسمية " الكنعانيين " مصطلحًا توراتيًا، لا علاقة له من قريب أو بعيد بكل المكتشفات الآثارية فيها [١١].

كما يعتبر د. دواود " السامية " بدعة يهودية حديثة، وأن الساميين فرع من فروع العروبة. وهو يوضح وجهة نظره بهذا الصدد على الشكل التالي: " إن سام هو ابن نوح، ولم يبتدع لغة، ولم يتكلم لغة غير لغة أبيه، وأمه العربية، ولم يخرج خارج بني قومه العرب، الذين يملأون الساحة العربية منذ آلاف السنين قبله، وما ينطبق عليه ينطبق على أبنائه من بعده؛ فآرام بن سام لم يبتدع لغة، ولم يتكلم لغة غير لغته العربية لغة آبائه وأجداده. وتؤكد جميع مصادر التاريخ العربي أن أبناء آرام جميعًا كانوا من العرب العاربة، أي الشديدي العروبة وأنقيائها. وقد بيدوا جميعًا ما عدا بقية منهم كانت منها عشيرة إبراهيم وذريته من بعده، وهم جميعًا في شبه جزيرة العرب وأنقيائها. وقد بيدوا جميعًا ما عدا بقية منهم كانت

منها عشيرة إبراهيم وذريته من بعده، وهم جميعًا في شبه جزيرة العرب، كما أن سام هو أخو يافث وحام، فكيف يصح أن يقتطع " سام " من بيت أبيه ومن بين إخوته عرقيًا ولغويًا؟

أما عبارة السامية، فقد ولدت للمرة الأولي على يد اللاهوتي اليهودي النمساوي شلوتزر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في محاولة صريحة لإضفاء نوع القدسية على مادعاه أنذاك بلغة الكتاب المقدس، مفترضا أن ثمة ما يدعي بـ " اللغة العبرية " نزل بها كتاب التوراة، وذلك بعد ما لمس حماسة كثير من العلماء، والباحثين اللغويين، إلي دراسة اللغات الشرقية القديمة، ثم ما لبث أن عبر عن نظريته بالفكرة المعروفة التالية: من البحر المتوسط إلي الفرات، ومن أراض الرافدين إلي بلاد العرب جنوباً، سادت لغة واحدة، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون شعبا واحدا، وكان الفينيقيون (الحاميون) أيضا يتكلمون هذه اللغة، التي أود أن أسميها اللغة السامية، وهكذا، تلقف هذه البدعة لاهوتيون يهود آخرون، أخذوا على عاتقهم كتابة تاريخ الشرق العربي، والإسلامي القديم، بصورة يبرزون فيها ما دعوه بالعبريين واليهود، ويسفهون العرب وتاريخهم [١٢].

وبناء على ذلك، فإن تسمية الكنعانيين كشعب أو جماعة بشرية، مازالت رغم كم الكتابات، والدراسات حولها، غير واضحة المعالم بعد، ولم يصار الي تعيين وتعريف واضح لها، والسبب الرئيسي الكامن وراء هذا الإشكال، يتمثل بالعامل السياسي بالدرجة الأولي.

هذا ماكان بالنسبة للكنعانيين، فماذا عن كنعان الأرض، التي تجمع

المصادر التاريخية الكلاسيكية على أنها فلسطين الحالية، من أين جاءت التسمية؟ وماذا تعني؟

كنعان الأرض:

يذكر د. فليب حتي، أن اسم بلاد كنعان، الذي كان يعتبر حتي وقت قريب سامياً، بمعني الأرض المنخفضة لاختلافها عن مرتفعات لبنان، اصبح مشكوكا في أصله السامي، ويظن أنه من اصل غير سامي، والاشتقاق الجديد Knaggi يجعله حوري الأصل، بمعني الصباغ الأرجواني، والصيغة الكادية كناخني Kinakhni وفي مسمارية رسائل تل العمارنة كيناخي Kinakhki، وبالفينقية كنع والعبرية كنعان، أي بلاد الرجوان، وبعد أن أطلق اليونان على الكنعانيين اسم فينيقين (حسب حتي)، اصبحت كلمة فينيقي مرادفة لكنعاني [١٣].

وقد أطلق أسم كنعان، أول الأمر، على ساحل وغربي فلسطين، ثم اصبح الاسم المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية، وقد تأسست مدن اريحا، وبيت شان، ومجدوا قبل عام ٣٠٠ قبل الميلاد، كذلك، فقد ظهرت في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني، مدن أخري، لها أسماء سامية معروفة، يمكن اعتباها كنعانية، مثل عكو وصور، وجبلة، وأركة، وسيميرا [١٤].

أما د. معاوية إبراهيم، فيري أن فلسطين كانت قد عرفت منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، باسم ارض كنعان، كما نصت عليها تقارير قائد عسكري عند ملك ماري، ووردت بوضوح في مسلة أدريمي ملك الالاخ (تل عطشانة)، منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وتقدم الموسوعة الفلسطينية " تحديدا أكثر للمنطقة المعروفة بـ " أرض كنعان "، وما جاء فيها حول هذا الموضوع: كنعان اسم أطلق على المنطقة الساحلية، التي تقع بين مصب نهر العاصي شمالا، وحدود المملكة المصرية جنوبا قرب العريش، وتضم هذه المنطقة فلسطين، وماسمي فيما بعد فينيقية(١٥).

ويقول د حتي، أن طبيعة أراضي كنعان، وموقعها الاستراتيجي بين مراكز الدول الكبري، التي قامت في وادي النيل، ووادي الدجلة، وآسية الصغري، لم تمكن الكنعانيين، قط، من النجاح في تكوين دولة قوية موحدة، فكانوا بدلا من ذلك ينتظمون في جماعات صغيرة على راس كل منها ملك، وصل إلي المُلك، غالبا، بعد انتسابه إلى طبقة الأشراف الملاكين، وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات، وأبراج للدفاع، يمكن لسكان الريف، والمجاورين، أن يلتجئوا اليها وقت الخطر، وأن يقصدوها وقت السلم، لتكون سوقًا لهم، ومركزًا اجتماعيًا، وإضافة الي ذلك، كانت هذه المدن بمثابة مكان للدفاع الرئيسي ضد غزوات الجبران الأقوياء، أو غارات البدو الرحل.

قد انتشرت المدن الكنعانية الأولي، على طول الساحل من جبل كاشيوس حتي الكرمل في الجنوب، ولكن تعرجات الشاطئ القليلة، جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدوداً، كما أن جبال أمانوس، وكاشيوس في الشمال، ومرتفعات فلسطين في الجنوب، لم تشكل ترساً كافياً ضد الهجمات من الوراء، كما فعلت جبال لبنان المرتفعة، ولذلك، فإن المدن العظيمة، التي قدر لها البقاء، تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان،

وهي طربلس وبوترس (البترون)، وبيبلوس (جبيل)، وبيريتوس (بيروت)، وصيدا وصور، هذه المدن، بالإضافة إلي عرقة، وسيميرا، واردوس (أروادا) في الشمال.. وغيرها من المدن، كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة، التي تكفي نفسها بنفسها. وفي سوريا الجنوبية، تقع غزة وعسقلان على الساحل، ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل، مثل جازر ولاكش ومجدو وهازور وشكيم وأورشليم، وقد ذكرت هذه المدن، وكثير غيرها في تقارير تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، ورسائل تل العمارنة، ويوجد وصف لها في سفري يشوع والقضاة[١٦].

وبذلك فإن الأرض التي أطلق عليها اسم بلاد كنعان، كانت تتجاوز فلسطين الحديثة، وتمتد لتضم أجزاء واسعة من لبنان وسوريا الحاليتين. وبالتالي، فإن ماذكر في التوراة حول تدمير بلاد الكنعانيين، يصبح غير صحيح.

واستناداً الي المكتشفات الأثرية، يدحض البروفيسور زئيف هيرتسوغ، المدرس في قسم آثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب، ماجاء في كتاب حتي بالقول، " التوراة تضخم قوة وحصانة المدن الكنعانية، التي تم احتلالها، ولكن الآثار كشفت النقاب عن مواقع غير محصنة، حيث وجدت في آحيان كثيرة مباني قصر الحاكم فقط، وليس مدناً حقيقية، الحضارة المدنية في فلسطين في العهد البرونزي المتأخر، انهارت في عملية استمرت مئالت السنين، وليس بفعل الاحتلال العسكري[١٧].

بينما تتلخص رؤية د كمال الصليبي بعنوان كتابه " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، فهو يعتبر أن أحداث التوراة جرت في جزيرة العرب، وليس في فلسطين، ويعتبر د. الصليبي، أن الكنعانيين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية، عندما تفرقت قبائلهم في الأرجاء في زمن مبكر، ليعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن)، على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين في المنطقة التي سماها الإغريق فينيقيا (على اسم الفينيقا في عسير)، وكون فينيقيا قد سميت كنعان من قبل سكانها أنفسهم، أمر معروف من خلال قطعة نقد هلينية من بيروت تصف هذه المدينة بالفينيقية بأنها، في كنعان وبالإغريق بأنها في فينيقيا " [١٨].

واستنادا الي هذه الأطروحة، يستهل د أحمد داوود رؤيته حول موضوع الكنعانيين، بالاستشهاد بما جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين، وذلك عندما ضاق المرعي بمواشي إبراهيم ولوط، فطلب إبراهيم، من ابن أخيه لوط، أن يختار مرعي آخر لمواشيه، يقول سفر التكوين، " وكان للوط السائر مع إبرام غنم وبقر وخيام، فلم يحتمل ضيق الأرض أن يقيما فيها معًا.. فكانت خصومة بين رعاة ماشية لوط، والكنعانيون والفرزيون حينئذ مقيمون في الأرض، فقال إبرام للوط لا تكون خصومة بيني وبينك ولا بين رعاتي ورعاتك، إنما نحن رجلان أخوان، أليست الأرض كلها بين يديك، اعتزل عني إما إلي الشمال فأتيامن، أو إلي اليمين فأتياسر.. فاحتار لوط لنفسه مكانا إلي المشرق، واقام إبرام في أرض كنعان.. وقال الرب لإبرام بعد أن فارقه لوط: إرفع ،طرفك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوبا وشرقاً وغرباً،

إن جميع الأرض التي تراها لك أعطيها لك ولنسلك إلي الأبد ".

فانتقل إبرام بخيماته حتي جاء، وأقام في بلوط ممرا. ثم يحدد له هذا المكان المرعي، في موضع آخر من سفر التكوين " من نهر مصر إلي النهر الكبير نهر الفرات " [١٩].

ويعقب د. داوود على هذا النص بالقول: في إمكان أي منا، أن يتصور، كيف يمكن لإبرام الواقف أمام باب خيمته تحت بلوطات ممر، أن يري من الفرات الي النيل، كما صارت في التزير الصهيوني، والحقيقة أن مرعي إبراهيم كان في سفوح جبل من بلاد غامد، حيث يظل يمينًا أو غربًا على قرية المصريين، ويسارًا، أو شرقًا على وادي الثرات (الفرات) من تلك الجبال، وينحدر شرقا صوب برية العرب [٢٠].

مما جاء في كتاب " العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود " للدكتور أحمد داوود، وتحت عنوان إبراهيم في ارض كنعان ثم " شخص إبرام من مصر هو وامرأته، وكل ماله، ولوط معه إلي الجنوب إلي بيت إيل الي الموضع، الذي كان في خباؤه في أرض الكنعانيين [٢١].

لننتبه الي التوجه الجغرافي: فأية أرض كنعان هذا سواء في فلسطين، أو في سوريا عمومًا، التي هي في جنوب مصر؟ [٢٢].

بالنسبة للدكتور كمال الصليبي، فإن كنعان (كنعن): آل كنعان (أي اله كنعان) في وادي بيشة، والشعوب الكنعانية كما ورد تعدادها في سفر التكوين: ١٥ - ١٦، تحمل كلها أسماء منسوبة إلي أسماء امكنة في أجزاء مختلفة من عسير، وهي لن تعرف هنا ومدن الكنعانيين، التي أدرجت في

سفر التكوين - ١٩، لتثبت حدود الأراضي الكنعانية، وما زالت باقية أيضا بأسمائها التوراتية هناك، حيث توجد قبيلة، أيضا تحمل اسم القنعان. والقول الغامض في سفر التكوين ١١٠ - ١٨، بأنه " بعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني "، قد يفسر السبب في إمكانية العثور على بعض أسماء المدن التوراتية الكنعانية في الشام، كما في شبه الجزيرة العربية [٢٣].

بعد ذلك، واستنادًا إلي ماقاله المؤرخ الشهير هيرودوتس بخصوص الكنعانيين، وموطنهم، يردي د. صليبي أنه مهما كان أصل " فينيقيا "، وهو الاسم الإغريقي القديم لساحل الشام، فإنه استمر في الوجود في موطنه الكنعاني الأصل في غرب شبة الجزيرة العربية، وهو اليوم لقرية اسمها الفينيقا في وادي بيشة، حيث توجد ايضا قرية ال كنعان [٢٤].

أما النص التوراتي، فيشير إلي أن حدود الكنعانيين تمتد، من جهة، من صيدن إلي غزة، مضيفاً أن هذا المكان الأخير يقع باتجاه " جرار " دون أن يوضح ماهو هذا الاتجاه: شمالا أم جنوباً، شرقا أم غرباً، ويصف النص ذاته حدودا أرض كنعان، من الجهة الأخري كذلك، ابتاء من صيدون، ودون أي تحديد للاتجاه [٢٥].

هكذا، فإن ثمة إشكال حقيقي بالنسبة للمنطقة، التي عرفت باسم كنعان، هل هي في سوريا (الكبري)، أم في شبه الجزيرة العربية؟ وهو أمر يجب أن يكون حافزا للتاريخيين والآثاريين للمزيد من البحث، من أجل الوصول إلي جواب مقنع في هذا الموضوع الهام، خاصة أن التنقيبات الآثرية المحمومة في فلسطين وجوارها، لم تستطيع حتي اللحظة العثور على أي دليل يؤكد أي وجود لبني إسرائيل، أو اليهود،

الذين تذكر التوراة، أنهم هاجموا مناطق الكنعانيين، واستولوا عليها.

ربما يمكن، مقارنة الإجابة على هذا السؤال، من خلال الاطلاع على " الحضارة الكنعانية ".

الحضارة:

بغض النظر عن التسمية، فإنه مما لاشك فيه أن المنطقة المقتطعة من سوريا، والتي اصطلح على تسميتها بفلسطين إبان اتفاقية سايكس - بيكوا، واجزاء من المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧، إبان اتفاقية أوسلو، إن هذه المنطقة وجوراها، قد شهدت وجود أقدم الحضارات في العالم، وهي حضارة إنسانية راقية، وعن هذه الحضارة يقول أسد الأشقر: إن المنطقة الجغرافية التي نسميها الهلال الخصيب، أو سوريا الطبيعية " تكون بيئة طبيعية واحدة، وهي بالحضارة التي تبلورت فيها، تعبر عن وحدتها الطبيعية تعبيرا عفويا صادقا، كما تعبر، ايضا، جميع الموجات العربية، والأقوام غير العربية، التي استوطنت هذه البيئة، سواء في الشرق في وادي الرافدين، أم في الغرب على شواطئ المتوسط، أم في الشمال جنوبي جبال طوروس، أم في الجنوب من البادية صعداً نحو دمشق، والتي تصادمت وتفاعلت، وأنتجت إيجابيا لأمة السورية العربية، ونبذت الشعب اليهودي المتحجر، الذي عصا جميع نواميس التفاعل والانصهار في بيئة طبيعية واحدة [٢٦].

تمركز الكنعانيون على الشاطئ السوري، وأوغلوا في أرض الجنوب " كنعان "، ثم حولوّا بحرهم إلي جزء من القارة الحضارية، التي خلقوها، فكانت " الظاهرة الكنعانية " - كما يسمها أسد الأشقر المدبرة

عن اليابسة، والمندفعة في ابعاد المتوسط، والتي لم تكن عابرة، خفيفة الأثر، كما لم يكن اندفاعها في البحر نوعاً من التلاشي والانتحار.

حسب التاريخ الكلاسيكي، فقد استقر " الكنعانيون " القدمي - سكان فلسطين الأصليين - منذ أقدم العصور في بلادهم فلسطين - كنعان -، وأرسوا دعائم حضارة متميزة، أصبحت فيما بعد أساساً ومرتكزاً لحضارات العالم المتمدن، وكانت دويلات المدن، الكنعانية الفلسطينية، تقوم على أساس سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وثقافي، يبلور نمط الحياة الفلسطينية، ويطبعها بطابع متميز [٢٧].

وكان النظام السياسي، الكنعاني، يقوم على أساس (الدولة - المدينة)، حيث برزت عدة دويلات / " مدن كنعانية " لها نظامها، وسورها المحيط بها والآلهة، التي تميزها، كما كانت أكثر أسماء المدن " الكنعانية "، تنسب إلي الآلهة الكنعانيين.

عن الديانة الكنعانية، فإن الألواح الفخارية، التي عثر عليها أثناء عمليات التنقيب في أوغاريت، والتي تعود إلي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، قدمت معلومات هامة عن الديانة الكنعانية، التي عرفت آلهة عديدة أبرزها " إيل " كبير الآلهة، ثم شمش " اله الشمس " و " عليان " بعل إله الحياة و " موت " إله الموت، " ورشف " إله الجنود، و " الأصح " إله البرق، والإلهة العظيمة " عشتروت ".

كان جوهر العبادات، لدي " الكنعانيين "، و " الفينقيين "، عموماً، يعكس اهتماماتهم الزراعية، حيث أطلق على هذه الديانة عقيدة الخصب.

وعن هذه الحضارة، يقول جان مازيل: امتازت القبائل الكنعانية المتحضرة، بفنونها الزراعية، وقد تجعلنا النصوص التوراتية نحلق في الخيال، أحياناً، من خلال وصفها لبلاد كنعان... وهكذا نشأت سلالة جديدة شيئا فشيئاً، واقامت في بقاع مختلفة من الساحل مراكز حضارية نشيطة جدا، وهي علائم حقيقية للاتحاد بين التجارة الساحلية، والاستثمار الزراعي. شعب ذو خصائص متميزة [٢٨].

مما جاء في كتاب د. فليب حتي حول الحضارة الكنعانية: عرف الكنعانيون " الزراعة، واستعملوا المحراث، والمنجل، كما أهتموا بالصيد البحري، ودجنوا الحيوانات، مثل البقار، والأغنام، والحمير، والماعز، والخنزير، والكلاب، واهتموا أيضا، بالصناعة، فبرعوا بصناعة الخزف، والمعادن، حيث برهنت المكتشفات الآثارية عن معرفتهم بصهر الحديد وصناعة النحاس، والفولاذ، والبرونز، كما عرفوا صياغة الذهب والفضة، وتفوقوا في صناعة الزجاج، وصناعة الأقمشة، وصباغة الأرجوان.

تبدأ الديانة، واللغة الكنعانيتان، بالظهور من غياب العصور السامية القديمة، حوالي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، غير أن اسلاف الذين سموا كنعانيين، كانوا غالبا يحتلون البلاد قبل ذلك بألف سنة أو أكثر، ويمكن استنتاج ذلمك، من أسماء الأماكن، كما أظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن، مثل أريحا، وبيت شأن، ومجدو، التي لها أسماء " كنعانية " واضحة، قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وظهر في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني مدن أخري، لها أسماء سامية

معروفة، يمكن اعتبارها كنعانية مثل: عكو، وصور، وجبلة، واركة، وسيميرا [٢٩].

بذلك، فمما لاشك فيه أن ما اصطلح على تسميته ب الحضارة الكنعانية، مكانها في فلسطين، وليس في شبه جزيرة العرب.

مما سبق، فإن تاريخ فلسطين " وجوارها، ما زال غير واضح المعالم بعد بسبب عدة عوامل يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

١- في القرن السابع عشر والثامن عشر، إزداد الاهتمام بتاريخ فلسطين وجوراها، حيث كتبت معظم التقارير الموجودة لدينا من قبل العام دراسي اللاهوت المتعصبين.

٢- بعد انتقاد هولندا أدريان ريلاندا لهؤلاء المتعصبين، صار بالإمكان أن نجد، كتابات أكثر موضوعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

٣- في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ تحول واضح في البحث عن الآثار الفلسطينية، واصبح العمل الأثري موجهاً من قبل جمعيات، ومؤسسات غربية أنشئت لهذه الغاية، وقد أتخذت هذه الجمعيات التوراة منطلقا لدراستها وأعمالها الميدانية، كما تضمن بعضها اهدافها ذات طابع سياسي وعسكري.

٤- من هذه الجمعيات " صندوق استكشاف فلسطين "، وكان هدفه المعلن: البحث الدقيق، والمنظم في الآثار، والطبوغرافيا، والجيولجيا، والجغرافيا الطبيعية، والتاريخ الطبيعي، وعادات، وتقاليد الأرض

المقدسة لغاية التوضيح التوراتي.

٥- ولما كانت التوراة مليئة بالأساطير والاقتباسات، فإنه لا يمكن الركون إليها كوثيقة تاريخية.

٦- إن تفسير المعلومات، والمكتشفات الآثارية من خلال التبني المسبق لما ورد في التوراة، أسفر عن وجود مغالطات وإشكاليات، وأحيانا تناقضات في الكتابات، التي أخذت تدون تاريخ المنطقة.

٧- ومع بروز القضية الفلسطينية، ازداد الاهتمام بتاريخ فلسطين، وظهرت مجموعة من العلماء والباحثين المتحررين من تأثيرات التوراة، والأفكار المسبقة، ما أسفر عن معلومات، ودراسات، اتسمت بشئ من الموضوعية والتجرد، أزدادت بمرور الوقت، رغم الممانعة، التي واجهتها من قبل الدراسات الكتابية (التي تعتمد التوراة مرجعاً).

٨- مع ظهور هؤلاء العلماء والباحثين، بدأت تتبلور اتجاهات وتيارات جديدة في كتابة " تاريخ فلسطين القديم "، وأسفرت في جزء منها، عما يمكن الاصطلاح على تسميته ثورة في هذا الاتجاه، حيث أنها تبطل، وتنفي أفكارًا وقناعات راسخة في التاريخ الكلاسيكي المعروف لفلسطين.

هكذا كانت فلسطين جزءا وثيق الصلة بسوريا الكبري، التي شهدت أول حضارة على هذا الكوكب، ولا يمكن بأية حال كتابة تاريخ مفصل لها، كما أن ماوصلنا من هذا التاريخ، كتب من قبل الغرب وبدوافع سياسية، خدمت الأهداف الاستعمارية، ما يتطلب إعادة النظر في هذا

التاريخ، وإعادة كتابته بطريقة موضوعية تخدم طموحتنا كشعب يتوق إلي التحرر، خاصة مع ما يبدو أنه عودة لعصر الاستعمار، والذي تقوده أمريكا هذه المرة.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الثالث

(١) روجيه غارودي، **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، ترجمة حافظ الجمالي، وصياح الجهيّم، دار عطية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، ص ١٧.

(٢) كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة ممدوح عدوان، مراجعة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ٢٠.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٣.

(٤) خليل السواحري، القدس القديمة تاريخية، **صامد الاقتصادي**، العدد ١١٠ خريف ١٩٩٧، دار الكرمل، عمان، ص ٣١ - ٣٢.

(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٤، ص ٦٦٦ - ٦٦٧.

(٦) د. فيليب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة د. جورج حداد، عبد الكريم رافق، الجزء الأول، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ص ٨٧.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٨٨.

(٨) كيث وايتلام، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩.

(٩) سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٤.

(١٠) **المصدر نفسه**، ١١٥.

(١١) د. أحمد داوود، **العرب والساميون، والعبرانيون، وبنو إسرائيل**، واليهود، دار المستقبل، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩١، ص ١١.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٦٣ - ٦٥.

(١٣) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ٨٧.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٨٨.

(١٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦٦.

(١٦) د. حتى، **مصدر سبق ذكره** ص ٨٩.

(١٧) زئيف هيرتزوغ، الحقائق تكذب التوراة، موقع google الإلكتروني، عن هآرتس.

(١٨) د. كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ٣٣.

(١٩) **الكتاب المقدس**، الجزء الأول، تكوين ١٥: ١٨.

(٢٠) د. أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩ - ١٠٠.

obeikandl.com

(٢١) تكوين ١٣: ١ و ٣.
(٢٢) داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩.
(٢٣) الصليبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٨.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٨.
(٢٥) تكوين ١٠: ١٩.
(٢٦) أسد الأشقر، **الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي**، الجزء الأول، القسم الثاني، منشورات مجلة فكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.
(٢٧) عبد الحكيم الذنون، **بدايات الحضارة**، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ٧٦ - ٧٧.
(٢٨) جان مازيل، **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية**، ترجمة ربا الخش، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٣ - ٣٣.
(٢٩) د. فيليب حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٧ - ٨٨.

* * *

obeikandl.com